الدخول في الصوم الكبير

المتقدم في الكهنة فيكتور بوتابوف

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن الذين ينتمون إلى الكنيسة فقط بدافع العادة أو بسبب الالتزام بالتقاليد، يرون عادةً الصوم الكبير، أي الأسابيع الستة التي تقودنا إلى أسبوع الآلام والفصح، على أنها مجرد وقت لضبط النفس. يمكن وصف هذا الموقف تجاه الصوم الكبير بأنه موقف سلبي: يجب على المرء أن ينكر اللحوم ومنتجات الألبان، والرقص، وغير ذلك من وسائل الترفيه، وفي مرحلة ما، خلال الصوم الكبير، يجب على المرء أن يمارس الاعتراف والمناولة. إننا نجد موقفًا مختلفًا تجاه الصوم الكبير عند الذين لا ينتمون إلى الكنيسة بقوة الاستمرار التقوية، بل لأنهم يسعون جاهدين من أجل إيمان واعٍ وشامل. لا يفوت أمثال هؤلاء أن يلاحظوا أن أسلوب التعبير الليتورجي في الكنيسة خلال الصوم الكبير هو الذي يتغير أولاً وقبل كل شيء. من الخطأ أن نرى في هذا مجرّد دعوة إلى توبتنا وتقويمنا، رغم أن هذا يدخل بلا شك في الموضوع الليتورجي لفترة الصوم الكبير.

لكن رسالة الكنيسة في العالم لا تكمن في إدانة الناس ودعوتهم للتغيير. يمكن لأي من أنظمةِ الفلسفة الأخلاقية العديدة التعامل مع هذه المشكلة. بالأحرى، تُظهر لنا الكنيسة، مرارًا وتكرارًا، حقيقة وحي العهد الجديد الأساسية: أن تكون مسيحيًا يعني أن تختبر سر الولادة في حياة جديدة، وبالفعل هنا على الأرض، للتعرف على الذات كمواطنٍ في ملكوت الله الذي أعلنه لنا المسيح. وعليه، فإن الصوم الكبير بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس هو وقتُ حزنٍ مشرق، وفي نفس الوقت صراعٌ روحي صعب ومدروس، وحجّ إلى هدف رائع: عيد قيامة المسيح، الفصح المقدس.

لماذا نطلق على زمان الصوم الكبير اسم وقت الحزن البهي؟ نشعر بالحزن لأننا ندرك أننا، كالابن الضال في الإنجيل، تركنا منزل أبينا وذهبنا إلى بلد بعيد، وأننا في حياتنا التي شتتها الغرور، لم نحافظ على نقاء ثوب المعمودية الذي لبسناه عندما دخلنا الكنيسة. نحن بحاجة إلى التخلص من حالتنا المقيدة، أي ذلك الروتين العادي الذي يغرس فينا فكرة أن حياة العالم الساقط، في

أنفسنا ومن حولنا، هي طريقة الحياة الوحيدة الممكنة. يظهر لنا في الأناجيل وفي خبرة القديسين والمناضلين الروحيين نمطُ حياة آخر، والتوق إلى هذا النمط يعني المشاركة في ذلك الحزن المشرق الذي هو بداية التجدّد الروحي. الحزن مشرقٌ لأننا نعلم أنه عند عودتنا إليه، يستقبلنا الله بنفس المحبة والاستعداد ليغفر لنا، كما استقبل الأب ابنه الضال في المثل الإنجيلي. لهذا السبب، الموضوع الرئيسي طوال فترة الصوم الكبير يصبح ذلك الجمع الصوفي بين الحزن والأمل والظلام والنور: جعلني الله هيكله، لكن هذا الهيكل يحتاج إلى تطهير وتجديد، وأنا أؤمن وأتمنى أن يساعدني الله في القيام بذلك.

في الخدمة التي يبدأ بها الصوم الكبير، أي غروب أحد الغفران، نسمع كلمات البروكيمنون الكبير، التي تعبّر عن التفجّع والرجاء: "لا تصرِفْ وجهك عن عبدك، لأني حزين! استجب لي سريعاً. أنظر إلى نفسي وخلِّصها".

يستمر الصوم الكبير أربعين يومًا. نعلم أن الشعب المختار سافر أربعين سنة بين عبودية مصر وأرض الميعاد. صام المسيح أربعين يومًا في البرية قبل أن يلِج إلى خدمته للكلمة وتضحيته. ولكونه بلا خطيئة، أعطانا مثالاً عن التجدد من خلال الصوم. بالنسبة لنا، هذه رحلة مدتها أربعون يومًا إلى نور الفصح المقدس - لأن عيد قيامة المسيح ليس مجرد عيد كبير ، أو حتى أعظم أعياد السنة الليتورجية، بل هو عيد القيامة، جوهر وقلب إيماننا. بدون إيمان ثابت بحقيقة أنه في المسيح، لا الخطيئة وحسب، ولكن أيضًا قوة الموت التي تبدو شديدة القوة، قد هُزِمتا، تفقد رسالة الإنجيل معناها: لماذا تجديد وإحياء ما هو محكوم بالموت والتفكك والنسيان في أي حال؟ لهذا السبب بالضبط قال الرسول بولس إنه إن لم يكن المسيح قد قام، فإن إيماننا باطل. ومع ذلك، فإن كل كلمة في البشارة المسيحية السارة، التي أُعلنَت لنا من خلال جهاد الإيمان الروحي ومن خلال معجزة القيامة، تحيا وتتنفس، ونور الفصح الآتي ينير أيام الصوم الكبير.

* Parish Life, March 2021, St. John the Baptist Church, Washington, DC.
https://orthochristian.com/137674.html